

باب التوسل والتعظيم

﴿ الباب الثاني (الولد) من كتاب اميل القرن التاسع عشر ﴾

« بقية المكتوب (٢٥) من هيلانه الى اراسم »

من السهل كثيراً على الاطفال ان يدركوا معنى الملك في حق انفسهم
ولكن من الصعب جداً اقناعهم بان للغير ملكاً يجب احترامه .
يشهد لذلك ما سأقصه عليك وهو ان مما يزرع في انكثرا الراوند
وهو نبات بهي المنظر شديد النمو يعرف في مزارعه بمرض اوراقه وعلو
سوقه يدخله اهل هذه البلاد لندرة الثواكه عندهم في عمل اقراص
وصريات يخالون بها كثيراً سواء أخطأوا في هذه المغالاة او اصابوا فترى
اطفال القرى بسبب بقاء ادواقهم على حالها الفطرية كلفون باكل هذا
النبات حتى انهم لا يحتاجون في تعاطيه الى تسويته بالنار ولا الى ادخاله في
الاقراص بل انهم يأكلون سوقه الفضة فجة ويمجدون لها طمأ مراً . من
اجل هذا حصل ان تلامذتي (لاني اعتبرهم كذلك) بينما كانوا يتزهون
وخدم في ضواحي بنزاس لمحا حقلأ من حقوله فحركهم اليه كما حرك
حمار الاسطورة^(١) دعوة القرصة لهم الى اغتنامها وعضوضه النبات وطراءته

(١) تشير الى حكاية الحمار والكلب وها كما منظومة من كتاب العيون اليواقظ

عطارنا واسمه فلان	قد خانه الدهر والزمان
سافر من داره بجحش	واسم ذا الجحش مرزبان
واتخذ الكلب حين ولي	والكلب هذا اسمه امان
فحصلوا غابة فحطوا	مراحة زانها المكان

(المنار ١٠١)

وبعض زغات الشيطان فلم يكن الا أن تخطوا ما يحيط بالحق من الحواجز
الواهية ثم انقضوا بقوتهم على بعض اشجار منه وأوها اطرى من غيرها
فاكلوا منها كفايتهم ولكن لم يلبث وجدانهم بعد هذا ان اخذ يناجيهم فيما
ارتكبوا فقال « اميل » وقد بدا نخله أتحسبان اننا قد احسنا فيما فعلنا
فاضطر رفيقاه الى الاعتراف بانهم جميعاً قد اسأوا .

ثم استأنفوا الكلام فقال وليم قول القدرى الرزين لقد كان ما كان
فلم يبق في قدرتنا اصلاحه فأجابته بلى وهى لكونها اكبر منهما سناً اعرف
بطرق المعاملات منهما : « بلى ان لنا سبيلاً للخروج عن تبعه هذا الخطأ
لانه يصح لنا فى كل حال ان ندفع ثمن ما اتلفنا » فكان لما قالته لرفيقها لمعة
ابتهاج اشرق بها ضميرها لانهما عولا على اصلاح التلف وبذلك يؤبون
الى بيتهم هادئى البال .

ونام مولى الجميع لما	رأى مروجاً بها الامان
اما الحمار اعتراه جوع	وحوله الند واللبان
فصار يرعى وما توانى	وآن من حظه الأوان
قال له الكلب يا حبيبي	الحبز في الخرج والدهان
ارقد على الجنب منك حتى	آكل فالجوع لى هوان
فاطرح القول ثم ولى	ولم يطاوعه مرزبان
ولم يدم ان اتاه ذيب	له للطع الدما لسان
فقال للكلب قم اليه	فاننى معك لا اهان
قال له الكلب كيف هذا	لا فاتك الضرب والطمان
احرمتنى الاكل فى نهارى	والجوع لا شك ترجان
ذق غصة الموت وامض عنى	فالوت اولى به الحيان
واغتاله الذئب وهو يجرى	ولم يدافع ولا امان
وهكذا فى الاصول قالوا	كما يدين الفتى يدان

ولكنهم لم يلبثوا ان وقعوا في حيرة عظيمة لانه لم يكن مع وليم وبلى من النقود فلس واحد . واما « اميل » فانه كان غنياً بوجود بنى (عشر سنينيات) في جيب صدرته ولم يتردد في اخراجه ليدفعه ثمناً لما اكواه ولما لم يروا في الحقل احداً يقوم مقام مالكة في قبض الثمن ادتهم سداجتهم الى ان وضعوا قطعة النقد على ورقة عريضة من اوراق الراوند وانصرفوا . علمت بتفصيل هذه الواقعة من بدايتها الى نهايتها من الجناة انفسهم لانى لما كنت لا اعاجلهم بالعقاب على ما يتقرفونه كانوا يحسبوتنى كأحد معلمى الاعتراف فيقرون لى بما يتقرفونه من الذنوب طيبة به انفسهم ولما خفت ان يكون ما تركه الاطفال من الثمن غير كاف فى تعويض ما التفوه نراضيت مع المالك على قيمته ودفعتها له على انها لم تكن كثيرة . وبذلك حسمت هذه المسئلة بنفقات قليلة واتى كنت ابذل كل ما يطلب منى فى مقابلة ما شرق فى بصائر أولئك النهابين الصغار من بريق العدل فى الوقت المناسب له ولو كان « اميل » هو الذى صدرت منه فكرة رد قيمة ما سلب لكان سروري بذلك اعظم كمالا اخفى عنك وفرحى به أكبر ولكنه له فضل بذل ما كان معه على قلته . كيف يكون تفهيم الاطفال ان كل ما ينبت على وجه الارض ليس مباحاً لجميع الناس ؟

ارى ان من احسن مدارس الاخلاق للصغار الذين هم فى سن « اميل » المدرسة الحلوية فانه قد تعلم فيها من نظره الى ما ينهك فيه اهل القرى من الاشغال الشاقة اكثر مما يتعلمه بجميع البراهين الممكنة لانه يرى فى كل يوم ان القمح لا ينبت الا اذا بذرت الناس حبوبه وان اجودارض لا تصلح للزراعة الا اذا قلبت وحرثت .

ثم ان الحيوانات ايضاً تعلمه اختصاص كل منها بما يملك . اذكر من ذلك
 مثلاً فأقول : انه يوجد في ضواحي بنزاس على شاطئ جندول بحري
 بعض اميال ثم ينصب في البحر نفيف من الاشجار يحوم على واحدة منها
 في غالب الاوقات طائر يقل وجوده في هذه الناحية وهو المسمى عند
 الانجائز بملك جوارح الطير وعند الفرنسيين بالخطاف الصياد (لعله الذي
 يسمى بالعربية الزُّمَّج) . استلفت هذا الطائر الجميل انظار اولادنا في اول
 الامر بهاء لونه ولكنني نبهتهم الى ان شهرته بالمهارة في كسب قوته ليست
 باقل من شهرته بجمال سرباله ذلك لان هذا المسكين يكذب في كسبه وينصب
 فانه يجثم ساعات كاملة في مكانه اى وراء غصن من الاغصان يحجبه عن الاعين
 ولا يترض بصره حيث يراقب كما تعلم بعينه اليقظون اللتين لا يقوتهما
 فأت مرور السمك في الماء فاذا سنحت له واحدة منها انقض عليها انقضاض
 السهم واصطادها ثم ارتفع بها معلقة في منقاره القوي الى محله وبمد ان
 يمزقها كل ممزق ويلتقمها يعود الى ما كان فيه من الترقب الشاق لعله
 ان الحظوظ نادرة وان شهوة الطعام حاكمة عليه وقد شهد الاطفال ذات
 يوم قتالاً عجيباً وقع بينه وبين جارح آخر اراد ان يختلس ثمرة صيده فلم
 يلبث « اميل » ان فهم ان هذا الطائر الثاني هو السارق لانه اراد ان
 يسلب خصمه ما كسبه بجده وسعيه

من المواطنين التي اريد ايضاً ان اغرسها في نفس ولدنا احترام ما
 يصيب الناس من العاهات وقد رأيت ان القاء الموعظ عليه في ذلك مما
 يضيع به الزمن عبثاً ولا حظت ايضاً ان كثيراً من الآباء والامهات يخطون
 بتشليم عيوب الحلقة وضروب التشوه القطري لا ولادهم في صورة عقوبات

الهيبة ومن الامثال على ذلك ان فتاة تسكن النزل الذي انا فيه شئت على هذه
الاوهام الشنية فكانت تمتد اعتقاداً راسخاً في عجز من جيراننا شوهاء
قوساء ان الشيطان يسكن حديتها . فالذي اريد اقتاع « اميل » به هو
عكس ذلك بالمرّة فاني اريد ان افهمه من غير افراط في تنبيه عاطفة الشفقة فيه
ان من سلهم الله من عباده محاسن الخلقة قد عوضهم منها مواهب لم
تقسم لغيرهم وقد علمت بانه يوجد على مقربة من قرية صرازيون غلام اكمه
يعيش من ثمرة كد والديه الذين هما من صلحاء الفلاحين فرأت فيه فرصة
حسنة لتجربة الفكر الذي تصورته وطلبت من تلامذتي الثلاثة ان يقبلوه
ورفقاً لهم فرضوا بذلك لانه متى كان المقصود للاطفال التسلي والانشراح
لا يعتبر عددهم كثيراً بالغاً ما بلغ وقد يكون لرضائهم بصحبته سبب آخر وهو
ان الانسان لا يكره مطلقاً ان يكون له رفيق يظهر علو درجته عليه لعله
فيه ككونه محروماً من بصر يضيء له سبيله وان كان ذلك الرفيق في
الحقيقة اشد منه قوة واكبر سناً فاننا كثيراً ما نشوب حنوّاً بشيء من
الكبر والصلف والاطفال مثلنا في ذلك وان لم يكونوا عالمين به . على انه
لا حاجة بي الى استقصاء اسباب اعمالهم .

يتسلى عرمة الاطفال هنا في فصل الربيع باصطياد طائر من الطيور
الخاصة بكرنواي وهو الغراب الاعصم^(١) ولكون هذا الطائر نفوراً في
حاله القطرية تراه لا يسكن غالباً الا الاماكن المهجورة ولعله بشدة
رغبة الناس فيه لندرته يدعوه ادراكه الى ان يتخذ وكنه في وسط ما لا يكاد

(١) الغراب الاعصم هو الاحمر الرجلين والمنقار وقيل الذي في جناحه ريشة

ينال من الصخور^(١) ولكن الصغار الباحثين المنقين لا يفت شيء من ايديهم فبعضهم مدفوع في بحته بما فيه من حب الاستطلاع وبعضهم يحركه الى ذلك طمعه في الربح لان هذا الغراب غالي القيمة ثم ان اكثر وجوده في ضواحي بنزاس بالشعاف الوعرة المنتشرة حول خليج الجبل حيث يتصم في صخور الصوان المتصدعة المنقبة بسبب ما اتت بها في غابر الازمان من الرخفات والزلازل ويوجد بالقرب من هذا المكان المنزل الوعرة قرية للصيادين تدعى (موس هول) ومعناه جحر الفار وانما سميت كذلك لتعلقها على الساحل كأنها جحر فأر في حائط

انا لا استحسن بحال صيد هذا الطائر لاسباب مختلفة ولكني ربما توهمت ان في التعجيل باظهار مذهبي في ذلك لتلامذتي خروجاً عن مقتضى السياسة والحزم لأنهم يرون لهم أسي في اطفال القرية تحركهم الى هذا الفعل ومن اجل ذلك لم امنعهم من الذهاب للصيد فانطلقوا في بكرة ذات يوم يصحبهم الاكاه ويتبعهم قوبيدون من بعد على غير صرأى منهم لانه يخاف عليهم ان يحل بهم خطر في تسلفهم الصخور وكان وليم وبلى يتناوبان العناية بشأن الاكاه المسكين ويقودانه فانقضى نهارهم على ما يرام ولم يكن ثزهم على القن الصوانية الا سيباً لازدياد شعورهم بعلو درجتهم على الاكاه لانه كثيراً ما كانت تزل قدمه في اقل العقبات وقد انستهم كثرة

(١) الوكن بالفتح عش الطائر في جبل او جدار او مقرة في غير عش ج اوكن ووكن بالضم ويسمى الوكن وكنة بالتثنية وبضمين ج كعرف وغرفات ووكنات بفتح الكاف وسكونها . ويقال اكنة وموكن . ووكن الطائر (كضرب) دخل الوكن والبيض حننه فهو واكن ووكون

اشتغالهم انقضاء الزمن بحيث أنهم لم يفرغوا من تناول طعامهم الشظف الذي تناولوه معاً حتى رأوا الشمس على وشك الغروب فدعهم الليل وهم لا يزالون على مسافة بعيدة من البيت وكان اصعب ما عليهم في ذلك الوقت تمييز طريقهم الذي صعدوا الجبل منه فلما رأهم قوبيدون في هذه الحيرة اشتدت رغبته في ان يظهر لهم ويسكن روعهم ولم يتمه من ذلك الا اخلاصه في اتباع ما ارشده اليه فانتظر حتى يرى كيف يتخلص هؤلاء التأهون من ورطتهم

اندرى أنه لما جن عليهم الليل انعكس الأمر فيهم كل الانعكاس فامسى الاكهم بصيراً لأنه بما حفظ ذاكرته ودقة لسه (التي هي من خواص العمى) من مواقع الطريق قد ميز الشعاب التي مر بها في الصباح كل التميز فبات قائداً بعد ان كان مقوداً فلما رآه الاطفال على هذه الحالة يسترشد في الطريق باطراف اصابعه كان له فيها أعيناً كادوا يعتبرونه في ذلك الوقت ارقى منهم فهم في ذلك كالتوحش يسهل انتقاهم من شعور متجاوز حده الى شعور آخر ليس أقل منه خروجاً عن الحد. الا يدلنا هذا على ان عبادة بعض الشعوب القديمة لذوى العاهات من الناس مبنية على مثل هذا السبب .

على ان ميل « أميل » ورفيقه الى الايمان بمثل ما اتى به ذلك الاكهم قد بعث فيهم روح الاستطلاع فالوهبة التي اوتياها الاعمى قد يصح لغيره من البصراء ان يكتبها بالتمرن لانك ترى الأطفال قد دلهم حدسهم الفطري على بعض طرق من شأنها انها تمي فيهم قوة السمع ودقة اللمس أكثر من غيرها فمن ذا الذي اخترع اللمبة المسماة

بالسنة^(١) لا اخال الا ان مخترعها هو حاوي^(٢) او غيره من اعضاء المجتمع العلمى (اكديما) فان هذه اللعبة التى يسميها الانكليز هنا جلدة الاعمى ليست الا تعاميا تعرف به الطرق التى للأعمى فى معرفة ما حوله . انشأ «اميل» ورفيقاه يمارسون فيما بينهم كثيراً من الالعب وطرق التدرب التى تقتضى الالتفات واعينهم مفضاة ومع كون الفضل كله للابصار والعينين كانت اثرتهم التى هيجهما فيهم ما رأوه من فعل الآكه توحى اليهم بان النظر الدقيق هو النظر باللمس وانى لى شك من انهم ينالون من هذه الجهة بكسبهم ما للأعمى من النظر الطبيعى ولو قضوا فى مزاولة ذلك طول حياتهم غير انه من فائدتهم ان يتعلموا فى الالعاب ما بين المشاعر من التعاون وقيام اخدها محل الاخرى وانى لا أنسى ما كنت تقوله لى كثيراً من انه لا يعرف طرق السمع والبصر حق المعرفة الا من تعاوره الخرس والعمى .

يجب على الآن ان اعود الى ما كنت بصدده من حكاية اصطياد الغراب الاعصم فاقول : لم يثر الاطفال على وكن واحد فى الصخور وذلك لان «اميل» ووليم لا يزالان من الضعف بحيث انهما لا يستطيعان الوصول الى الشعاف الوعرة التى يلجأ اليها ذلك الطائر واما بلى فلكونها بنت رجل

(١) السنة لعبة للأعراب يقال لها الضبطة فاذا وقعت يد اللاعب من الرجل على بطنه او رأسه او كتفه فهى السنة واذا وقعت على رجله فهى الأسن — كنا فى معاجم اللغة ويظهر ان هذه اللعبة طبيعية توجد عند جميع الأمم ولها ككيفيات واسماء كثيرة

(٢) حاوي واسمه والتين هو عالم فرنساوى ولد فى سنة ١٧٤٥ ب . م . ومات فى سنة ١٨٢٢ ب . م . استبدل بالحروف الخطية الحروف المجسمة لتعليم احدث العميان القراءة والكتابة وأسس مدرستهم المشهورة فى باريس

يدين بمذهب المرتجمين^(١) ترى ان استلاب افراخ الطير من امها من فعل الشر . هذا المذهب الديني كما لا يخفى عليك يورث اصحابه ميلاً عظيماً للاحسان الى الحيوانات ولكون قوبيدون اقل تخرجاً منها في هذا الأمر واحرص دائماً على فعل ما يرغى « اميل » كان امهر منهم او أسعد حظاً في بحثه لانه بتلك الخفة في التسلق التي تمثل انسان الآجام في شخصه كان قد اصطاد من بين القن الصوانية والادغال زوجاً من هذا الطائر صغيراً بنت ريشه لكن اجنحته لما تطل ليستطيع الطيران فلما رأى الأطفال الزنجي دهشوا دهشة عظيمة لانهم ما كان يخطر لهم على بال انه بهذا القرب منهم يتدخل في كل مكان وهو كالليل في السكون فاتبه جوا برؤيته وزادتهم فرحاً ورؤية الفرخين اللذين كانا شبيهين بكرتين من الزغب ركب فيهما منقاران احمران حتى ان بلّى نفسها ابدت من البشر والارتياح في هذه الساعة ما دل على انها نسيت اصول مذهبها القويم .

ولما كنت اعلم ما يعامل به الأطفال الطيور عادة اذا وقعت في ايديهم بقيت وحدي غير مشاركة لهم في هذا الابتهاج العام الذي ولده اصطيد هذين الفرخين ولكن ماذا كان في وسعي ان افعله او اقوله فلو اني قلت لهم خلوا سبيل اسيركم لاطقوها ولكن مع الكراهة والأسف من اجل هذا رأيت ان الامثل بي الرجوع الى طريقة اخرى وهي اني وضعت

(١) المرتجمون لقب لجماعة الاخوان في انكلترا وهم طائفة من رجال الدين أنشأها جورج فوكس المولود في سنة ١٦٢٤ ب . م . وأول من لقبهم به هو جورج بنيت في دربي (من اعمال انكلترا) لان جورج فوكس المذكور خاطبه وخاطب من حضروا معه بقوله ارتجموا اذا سمعتم كلام الله هكذا جاء في جريدة جورج فوكس نفسه

الفرخين في حجرة سفلى من حجرات البيت كنا نضع فيها ادوات البستان
فأخذتها بيتاً للطيور ثم اخذت ايين « لاميل » انه يجب عليه ان يتولى
بنفسه تغذيتهما لانها اصبحا محرومين من امهما التي كانت تهولهما وبالغت له
عن قصد فيما يستلزمه ضعفهما الشديد من ضروب العناية ليقوم ذلك مقام
ما كان يكتفهما من رعاية وليها الطبيعي فكان من ذلك ان حبس نفسه
جزءاً من النهار في بيت الطيور ولم يلبث بهذه الطريقة ان عرف انه قد
اصبح أسيراً لاسيره وصارت كراسته لهذه الوظيفة اصراً محتماً والذي
استفاده فيها من العبرة هو انه لا يتأتى للانسان حرمان غيره من حريته
الا يفقد جزء من حرية نفسه ولذلك لم تمض بضعة ايام حتى جاءني راجياً
اطلاق الفرخين ليضميا في سبيلهما .

لما رأيتني قد نجحت في سوق العبرة « لاميل » في الآله صممت
على الاستمرار في تجاربي فعلمت ان في ضواحي قرينتنا راعياً صغيراً مشهوراً
بالبله يسخر منه جميع عرمة الاطفال في القرية ويهزؤون بسداخته وكنت
ارتعد خشية ان يفعل « اميل » فعلهم لان القدوة شديدة العدوى
والضحك مما ينبغى الرثاء له واحترامه هو من ضروب القسوة التي في
الاطفال ولكن قد اعاني ولله الحمد على ما كنت بسبيله ما عملته من الفكر
وما سخر لي من الفرصة . ذلك اني قابلت هذا الراعي الصغير ذات يوم
في الحقول فتبينت فيه انه يميز كل شاة من شياهه على حين ان قطيعه كله
لم يكن في نظري وفي نظر « اميل » الا شاة واحدة مكررة مائة مرة
فذلك اذن مزية له علينا عاهدت نفسي عهداً على الانتفاع بها في سياستي
« لاميل » فعرضت عليه في اليوم التالي لتلك المقاتلة ان يصحبني الى الكشبان

حيث علمت بوجود ذلك الراعي هناك فلما رآه قال وَيَكَاثِي بِهِ المجنون وهو الاسم الذي يطلق هنا على السخفاء والبله فتظاهرت له بعدم الالتفات الى ما قال ووجهت نظره الى خصيسته في تمييز شياهاه بعضها من بعض بمجرد نظره اليها على ضعف عقله مع تشابهها علينا كثيراً فكان ذلك باعثاً لهدهشته وموضوع محادثة مع ذلك الأبله تبين لنا منها انه على علم تام باسنان شياهاه وطباعها بل بأقل الشيات الظاهرة فيها فتسنى بذلك « لاميل » ان يقتنع في نفسه بأن هذا الجاهل المسكين اعلم منا في بعض الامور الخاصة به ولكي استفيد من هذا الاقتناع طلبت من الأبله قبول ولدي في مدرسته بضعة ايام يعلمه فيها ما اوتيته من العلم فقبل ذلك طيبة به نفسه منتظراً من ورائه مكافأته بل ربما كان ايضاً ممللاً نفسه بحسن ظن الناس بصلاحيته لبعض الأمور وكان هذا بحسب ما ظهر لي من حاله اول اكرام ناله في حياته واما « اميل » فانه كان على ما يظهر لي اقل ارتياحاً منه بكثير لهذا الامر لانه بسبب حبه لنفسه وعجبه كان يتألم من ان يكون تلميذاً لشخص يعتبره هو ورفقاؤه احق ويرى ان في ذلك غصاً من كرامته ولكني لم اجد وسيلة اخرى للوصول الى مقصدي على انه لا شيء عليه في ذلك فلشدت ما سيفتخر على افراجه بابداء ما علمه لهم وان قل ويظهر لهم من الشتم به مثل ما كان للاحق عليه وقد استفدت من هذا التعليم فائدتين فيه اولاهما ان ملكة تمييز ادق الفروق التي بين افراد القبيل الواحد لا تقتصر على استعمالها في الفهم بل انها متى حصلت يصح ان تتعدى الى جميع ما تكلم عنه علم التاريخ الطبيعي من صنوف الموجودات والفائدة الثانية واراها انفس من الاولى هي ان يعلم باننا على الدوام محتاجون الى التعلم حتى من اضعف

الناس عقلاً .

يتوهم « اميل » انه لا يكون رجلاً الا اذا لعب كما يلعب الجندي
ولذلك تراني ابيع له شيئاً من هذا اللعب موافقة ليله ومراعاة لسنه . ولكني
منذ بضعة ايام رأيت منه في اثناء هذا اللعب ما راغني واطار لي اذ رأيت

فتيان القرية منقسمين الى فئتين وهو في وسطهم يحمل لهم اللواء .

نعم انهم كانوا يقتلون بسيوف من الحشب ولكن لو انها من الصلب
وكانت هذه الايدي الصغيرة العاملة بها ذات اعصاب قوية لتمثل امامي قطعاً
مشهد من مشاهد تلك المذابح الفظيعة التي تصبغ اديم الارض بالدماء
ويسمها الناس حروباً فقمت انا بما كان يعمله قدماء السابينيين^(١) اعني انا
توسطنا بين الفريقين المتحاربين وحجزنا كلا منهما عن الآخر فرأى « اميل »
منى حتماً اني تأملت لهذه الحادثة لانه لما رأني شحب لونه وألقى بنفسه بين
يدي طالباً مساعته

اني في الحقيقة ولا أخفي عليك قد انجرح قلبي لهذا المنظر وان كنت
اعلم انك في يوم ما ستعلمه من غير شك ان هناك حروباً مبنية على الحق
والعدل وان من اجمل ما يتصف به الانسان ويحمد عليه الذود عن حوزة
بلاده والموت في سبيل الدفاع عن رأيه ولكنه في السن الذي هو فيه
الآن لا يفهم هذه الدقائق ولا يرى في الكفاح على اي حال الا ما يراه
معظم الناس من كونه وسيلة للشهرة والتمايز وذريعة الى ظلم الاكفاء
والنظراء . وسواء اتخذ الاطفال لواءهم من الورق او الحرق البالية تراهم

(١) السابينيون أمة قديمة كانت تقطن الجزء المتوسط من ايطاليا اقام قسم منها

في رومية مع تاتيوس وبقى القسم الآخر في الجبال حتى اخضعه توريوس دانتايوس

كالجنود منقادين الى وجدان واحد لا تقوى فيه ولا ايمان قبيحهم غير انهم الوحشية على ان يرفعوا ايدياً لا ينقصها من اول نشأتها الا قوة القتل ليضربوا بها اخوانهم . اذا كانت الحروب تنتشب بين الحكومات فليس ذلك الا لان غيريتها قد سكنت قلب الانسان من امد بعيد وكيف لا تسكنه ونحن نرى القائمين على الاطفال يصرفون عنايتهم الكبرى في اعلاء شأن صدى الانسان الى شرب الدم الذي يجعلنا كالوحوش الضواري فإى اسم من الاسماء الجميل ظاهرها كالشرف والظفر وحب الوطن لم يقرن بذلك الميل الذي تعبده الناس كما كانوا يعبدون وثن ملوخ^(١) وانى استعبد بالله من ان يكون قلب ولدي مغرساً لهذه الشهوة التي كلها كذب وقسوة .

لما انتهى امر هذه الواقعة اخذت « اميل » بيده وانطلقنا فاتفق ان رأيت في طريقى تلك الساعة كابين ضئيلين يقتتلان وبعض كل منهما الآخر على عظمة قد قرض نصفها فقلت له تأمل فتلك صورة جميع ميادين القتال ولست على يقين من انه ادرك هذه المرة معنى ذلك الكلام ولكن اقل ما فى الاضر انه فهم سبب تأثري لانه وربك كان بالغاً منى مبلغاً عظيماً . انا مع اعتقادي بما فى تقييح هذه الاوهام السيئة فى نظر « اميل » وتشهيرها من الفائدة له لا ارضى ان يكون جباناً ولو أعطيت فى ذلك ما فى الارض جميعاً . وان الوالدين فى الجملة يفرطون أثناء تربية أبنائهم فى اساءة التصرف بما فىهم من وجدان الخوف فانهم يجتهدون فى اربابهم بكل ما فى وسعهم من طرق الارهاب فيخوفونهم من السماء بحجة أن سحبتها تُقل صواعق الانتقام ومن الارض بقولهم ان الله سبحانه قد لعنها وغضب

(١) ملوخ هو معبود الفينيقيين والقرطاجيين وكانوا يقدمون له الاطفال قرابين

عليها بسبب خطيئة آدم ومن الحياة لان اعمالهم فيها ستعرض على حاكم يحصيها جميعها ومن الموت بجمله مخوفاً بمخاوف لا تنقضي الى الابد .
 هذه التربية التي اساسها الارهاب والتخويف انما تلائم الارقاء تمام الملائمة ولكنني في شك صريب من انها تنشى رجالاً احراراً . فاذا كان لا بد « لاميل » ان يرتاع ويفزع فليكن ارتياعه وفزعه من وجدانه وسريته ولكنني خلافاً لأولئك المربين اجتهد في تطمين قلبه وتسكين روعه من هذه المخاوف المهمة الخيالية التي كثيراً ما تلازم اذهان الاطفال واود لو اراد شجاعاً جريئاً على الاشياء وديماً مخفوض الجناح للناس فالواجب أن تكتسي الشجاعة حلة الشرف الحقيقي لا ان تحلى منه بالبهرج الكاذب .
 رأيت « اميل » كغيره من الفلمان الذين في سنه يخاف من الليل ومن كل ما ليس معروفه فيوجد في اقصى البستان روضة من شجر البندق المتوسط في الكبر لا يجراً على دخولها وحده بعد غروب الشمس كأنه يخشى ان يؤكل فجأة وعلى اى حال ليس في الامر ما يدعو الى الافراط في الاستغراب فان الاطفال لم يكونوا ليشتغلوا باحدوثة الاصابع^(١) كل هذا الاشتغال الذي نعلمه منهم لو لم يبق فيهم اثر من

(١) اسطورة الاصابع احدى اساطير شارل برولت الكاتب الفرنسي الشهير المولود سنة ١٦٢٨ والمتوفى سنة ١٧٠٣ ق. م . التي وضعها للصغار وسماها اساطير الجن وملخصها : ان خطاباً ضاقت به الحال لأن زوجها كانت نشوراً أقل حملها التوأم فاجتمع له سبعة ولد لا أكبرهم عشر سنين ولا صغرىهم سبع . وولد هذا ضئيلاً كالاصبع فسمي (الاصبيع) وكان غصه لوالديه مهضوماً عندهما على انه اذكى اخوته وادهاهم اصابتهم سنة شباء اضطرت الوالدين الى التواطؤ ليلا على اضلال الاولاد في غابة لكيلا يشاهدوا موتهم جوعاً فسمي الاصبيع فيات مسهداً وبكر الى شاطئ فلا

الانسان الوحشى الذى كان يعيش محوطاً بجميع ما فى الكون من الاغوال وربما ان الذى كان يمنع « اميل » من الدخول فى تلك الروضة مساء هو اشفاقه من ان يقابله فيها ذئب القبيعة الحمراء^(١) وبالجملة فهو نفسه لا يعرف

حيوبه حصى ابيض وكان يلقي كل بضع خطوات من طريقهم الى الغابة حصاة ولما أضل الوالدان الأولاد وعادا طفقوا يصرخون فهداهم الاصيبح الطريق وسلموا . ثم توطأ الوالدان اخرى واكن لم يتمكن الاصيبح من الخروج لأخذ الحصى ولكنه ادخرا الكسرة التى اصابته من الحيز ففتها وناقها فى طريقهم الى الغابة ولكنه لم يبتدئ اليها بعد الاضلال لان الطير اكلها فصعد الى شجرة فانس بصيص نار فى الظلام فأمه باخوته فاذا هو بيت الغول فقبلت زوجته ضياقتهم فى غرفة بناتها فجاء الغول وشتم ريجهم وحاول اغتيالهم فاستمهلته الى الصباح وسمع الاصيبح فاستبدل سجان البنات الذهبية بهجاتهم فاستبه الأمر على الغول وذبح بناته ليلاً وتسلل الاخوة لو اذا ثم تبعهم بنعله ذى الفراسخ فأووا الى كهف ادركه الغول من الفد فنام فوقه ليسترخ فسرق الاصيبح الثعل وعاد به الى زوجته قائلاً : ان اللصوص قبضوا عليه وطابوا منه الفد آء فارسله بالثعل ليحضر له جميع ماله فصدقت العلامة وعاد بالمال الى اخوته فحملوه الى البيت وحسنت به حالهم . وموعظة الكاتب المقصودة ان الناس بكرمون الجليل من ولدهم ويمتهنون الدميم مع انه قد يكون سبب سعادة جميع اهله

(١) يشير الى اسطورة اخرى من اساطير ذلك الكاتب ملخصها : ان جارية بارعة الجمال البستها امها قبيحة حمراء زادتها جمالاً فعرفت بها وأرسلتها يوماً لخدمتها وكانت مريضة بقرص وصحفة زبدة فصادفها الذئب فى الطريق ولكن صدد عن افتراسها حطاب فاستبان الذئب مقصدها فدلها على طريق بعيد وسلك القريب الى جدتها فاكلها ونام فى فراشها فلما جاءت الجارية دعاها الى الثوم معه مقلداً صوت جدتها ففعلت وراعتها اعضاء جدتها التقليدية فقالت : اي جديتى ما أطول يديك ! قال ذلك لأحسن معانقتك . فقالت وما أطول ساقيك ! قال ذلك لأحسن العنود . فقالت : ما أكبر أذنوك ! قال لأجيد السماع : فقالت : ما أعظم عينيك ! قال لأجيد النظر . فقالت ما أطول آنيابك ! قال إنما خلقت كذلك لآكلك وافترسها

قصص الكاتب ان الاطفال الحسان ولا سيما البنات مخطؤون فى الاصفاء الى كل من

ان يبر عما يرهبه والحقيقة انه يخاف من ذلك الشيء الذي يسمع عنه بانه
يجول في الظلام .

لما رأيت ان آثار الخوف ألصق بالنفس من جميع الآثار والانفعالات
وان التظاهر بمقاومتها لا يزيد بها الاثباتاً اقتضت علي ان حسنت « لاميل »
دخول الروضة المذكورة مستحجاً الدبة لانها لا ترهب شيئاً ولا استعدادها
في كل وقت لاقتفاء اثره فلما رأى بهذه الوساطة ان له رقيقاً لم يتمتع من
الدخول ولم يلبث ان عرف ان الذي كان يشوش ذهنه الى تلك الساعة
انما هو وحشة المكان وخلوه من الاينس ولم تفتني الاستفادة من هذه
العبرة انا ايضاً لاني قد فهمت بها جميع ما قد زاد في نفس الانسان من
القوة بسبب اختلاطه بالحيوانات المستأنسة في اعصره الاولى .

انا الى اليوم ملتزمه : مع « اميل » عدم الخوص في المسائل الدينية
موافاة لرغبتك ولكن قد حصلت بيننا واقعة في الاسبوع الماضي ينبغي
ان اقصها عليك . ذلك انا رأينا في عصر ذات يوم من ذلك الاسبوع
هيدبا من السحاب رصاصي اللون كان اول ما رأيناه قزعا ثم تراكم
حتى صار مكفهرآ ثم اختلط فصار قطعة واحدة مظلمة اناخت على الماء
بكلها وكنا نرى شعاعاً اكد من اشعة الشمس لا يزال يخرق هذا
الستار الحدادي في بعض جوانبه ولم يكن الا قليل حتى غاب في شبه

يكلهم ولا غروان يأكل الذئب كثيراً منهم . وما كل ذئب ذئب القبيعة الجراء
فان من الناس ذئاباً يبصصون ويملقون للفتيات ويفازلونهن متبعين خطواتهن في
الازقة والشوارع ولكنهم على ما يظهرون من اللطف والحب اضر عليهن من جميع
الذئاب .

دجنة مخيفة منذرة بالمطر ثم انقطع هبوب الريح فلم يبد منه اقل نفحة وقلبا
كنا نسمع من بعد تنفس الخليج بامواجه وهي تملو وتخفض بشمل كأنها
صدور المكروبين اللاهثين ونظرنا الى الشاطئ فلم نر فيه عود حشيش
واحد يتحرك فكان الكون في سكونه هذا كالمشده الغائب عن رشاده
يتوقع حصول أمر عظيم له ثم لم يكن الا اقل من ساعة حتى عصفت
العاصفة بعد كونها ثم صدع البرق قبة السحاب المتراكب صدعاً متمججاً
وقصف الرعد لأول مرة فاهتز له جميع البيت. فارتعدت فرائص «اميل»
واسرع الى محتجياً بي مستنداً الى صدري كأن في قدرتي أن امنعه من
هياج الفواعل الكونية ثم تعاقبت البروق والصواعق وانشأ ماء الخليج
ينبلي وهو اكدو مزبد كالسكب (البرنز) صهر في مرجل ثم اخذ الريح
بعد ارتفاعه فجأة يبدد سيول المطر مزججراً وكنا نسمع هزيم الرعد في
السحاب من بعيد ونرى وميضاً فجائياً متتابعاً ثم تبع ذلك كله الهدوء والسكون
ولما كان «اميل» اكثر من في الارض مسئلة قد سئني وهو متأثر
قائلاً « اماه ما هذا الذي ثار غضبه فوقنا » فخرت هذه المرة حيرة
شديدة في اجابته لاني لو قلت له ان ذلك هو الله لكنت قد التقيت في
ذهنه معنى سخيفاً لتلك الذات الكامل القادرة البالغ الحكمة البراً عن
الانفعالات فاقصرت على ان فسرت له باحسن عبارة مناسبة لفهمه سبب
هذه الظواهر التي ازعجته ولكن الغلام قد ادرك بحدسه من هذه الاصوات
الشديدة التي سمعها من العاصفة ومن هذا الجو الممتلي بالفرعات الالهية
بل وربما انه ادرك ايضاً من عيني اللتين كانتا على رغمي اكثر من لساني
كلاماً نعم ادرك من كل ذلك ان من وراء هذه الآثار شيئاً آخر وذلك

حق لان الله سبحانه ليس ظاهراً للعيان فيشار اليه بالبنان ولكنه موجود يحس به الوجدان ويعرفه الفكر والجنان من اجل ذلك قلت انا « واميل » وادينا فرض العبادة لذلك المرید الذي لا حدَّ لارادته القادر الذي بيده مقاليد السموات والارض وان كان عقلاً لا يصل الى ادراك كنه ذاته . انا في كل يوم تبدولي صعبوبة العمل الذي شرعت فيه فان طريقة التربية بالعمل التي اسير عليها تقتضي ان يكون في المرابي معارف انا اخلو من كثير منها ولكن هذا لم يعنى من اعتقاد انها هي الطريقة الوحيدة في تقويم خلق « اميل » ثم اعلم ان حياتي بدونك انما هي فراغ اجتهد في ملكه بالقيام بذلك الفرض العظيم ولم يبق لي من غرق سفينة آمالي الا ولدنا الذي اثبت به ثبت الفريق بلوح النجاة واجبه لذاته ولك على ان بعض هواجس مشؤمة تمر بخاطري من حين الى حين فتكدر صفاء ما في قلبي له من نفيس عواطف الحب ذلك اني اقول في نفسي ما اذا يكون الحال اذا كان هذا الطفل بعد ما بذلناه له من صنوف العناية يخون في مستقبل ايامه عهود والده وينكر مبادئه ويدوسها تحت قدميه ولا يكثر بماعراه من الآلام طول حياته ؛ اذا لا قتله . . . كلا بل اقتل نفسي ولكن تحقق هذه الهواجس من الاستحيل وارجوا ان يصلني كلمة منك تزيل عنى هذه المخاوف المكدره التي بلغ تشويشها لي الى اعماق نفسي .

« تنبيه ورجاء »

قد انقضت سنة المنار الثالثة فلم يبق منها الا عدد واحد فارجو من المشتركين الكرام التفضل بارسال قيم الاشتراك حوالة على البوسطة وليعتمد اهل ملوى ونواحيها حضرة الفاضل الشيخ محمد اسماعيل وكيلاً للمنار .